سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾

من دلائل كون محمد العربي - صلى الله عليه وسلم - رسول الله : هذا القرآن الحكيم الذي عرضه مقراً أنه أوحي إليه من عند الله ، وأما كوْن القرآن "حكيماً" فمعناه : إنه داعٍ إلى الصراط المستقيم ، أي يهدي إلى الطريق الذي هو أقوم الطرق وأصوبها ؛ إذْ ليس في محتوياته شيء يتعارض مع العقل والفطرة ، فبالرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول القرآن ، إلا أن أحداً من الناس لم يستطع حتى الآن إبطال شيءٍ مما جاء بحجة أنه منافٍ للعقل أو الفطرة ، وإن هذه الميزة الفريدة لهي أكبر دليلٍ على كونه كتاباً منزلاً من عند الله العزيز الحكيم.

والمقصود من القوم في قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا ﴾ بنو إسماعيل ، وإن كل نبيٍ إنما يأتي لإنذار قومه في المقام الأول ، وكذلك كان المخاطبون الأولون لنبي الإسلام بدوره هم أفراد قومه هو ، ولكن بما أن النبوة قد انتهت بعده - عليه الصلاة والسلام - لذلك فما زالت نبوته باقيةً مستمرةً إلى يوم القيامة ، وإنما الفارق هو أنه - عليه الصلاة والسلام - أعذر في حياته إلى بني إسماعيل وأقام عليهم الحجة بصفةٍ مباشرةٍ ، بينما تضطلع أمته بعد وفاته ، نيابةً عنه، بواجب الدعوة والتبليغ والإعذار إلى مختلف شعوب العالم !

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا

فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ :والله لقد ثبت ووجب العقاب .

أَغْلالاً :قيوداً تشد أيديهم إلى أعناقهم .

فَهُم مُّقْمَحُونَ : رافعوا الرؤوس غاضوا الأبصار

سَداً : حاجزاً ومانعاً .

فَأَغْشَيْنَاهُمْ : فألبسنا أبصارهم غشاوة .

لئن امتلأ عنق المرء أغلالاً وقيوداً ؛ فإن رأسه سيبقى مرفوعاً متجهاً إلى فوق ، بحيث لا يمكنه أن يبصر موضع قدميه . وهذا تمثيل لأولئك المغرورين الذين قد استغرقوا في كبرياء أنفسهم ، لدرجة أنهم لا يكادون يرون أية حقيقةٍ خارج ذواتهم ، وأمثال هؤلاء لا يوفقون للاعتراف بالحق أبداً !

وإن أهم شيءٍ فيما يتعلق بالاهتداء إلى الحق ، هو أن يتوافر في داخل المرء مادة الاعتراف، وأن يكون هو على حذرٍ دائمٍ من لحظة المثول بين يدي رب العالمين، وألا ترضى نفسه الطموح بشيءٍ أقل من الصدق الكلي الشامل، فأمثال هذا هم الذين يندفعون سراعاً وراء الحق إذا تجلّى ، وبالتالي يستحقون عند الله الجزاء الأوفى ، والإنعام الأكبر !!

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

وَآثَارَهُمْ : ما سنوّه من حسنٍ أو سيئ .

أَحْصَيْنَاهُ : أثبتناه وحفظناه .

إِمَامٍ مُّبِينٍ : أصل بين ، (اللوح المحفوظ)

لقد أثبتت الكشوف العلمية الحديثة أن كل صوتٍ يخرجه الإنسان من فمه يبقى كما هو في "الأثير" في حالة نقوشٍ ، وهكذا كل ما يمارسه الإنسان من عملٍ تنعكس صورته أيضاً بشكل الموجات الحرارية على شاشة الكون وتحفظ إلى الأبد ، وهذا يعني أن حياة كل منا تُصور تصويراً دقيقاً كاملاً كشرائط التسجيل التلفزيونية . وهذه التجربة تدلنا على أنه من الممكن في هذا العالم أن تسجل جميع أعمال الإنسان وأقواله بدقةٍ تامةٍ ، من حيث لا يدري ولا يسعه الحيلولة دونها أو الهرب منها ، ثم يُعاد عرضها عليه في أية لحظة!

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

القَرْيَةِ : أنطاكية .

فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ : فقويناهما وشددناهما به .

تَطَيَّرْنَا بِكُمْ : تشاءمنا بكم .

طَائِرُكُم مَّعَكُمْ : شؤمكم كفركم المصاحب لكم .

أَئِن ذُكِّرْتُم : أين وعظتم تطيرتم .

لعل المراد بالقرية هنا بلاد مصر ، حيث بُعث لإنذار أهلها برسولين اثنين (موسى وهارون) في زمانٍ واحدٍ ، ولكنهم قابلوها بالجحود والإنكار، ثم نهض من بني جلدتهم رجل ثالث أيد الرسولين بحماسٍ ويقينٍ ، وربما يكون المراد بهذا الرجل الثالث هو الرجل المؤمن الذي ذكره القرآن في سورة المؤمن بالتفصيل .

وإن أشد الأشياء مرارةً بالنسبة إلى الإنسان ، مازال يتمثل ، على اختلاف العصور ، في النصيحة تسدى إليه وهي لا تتفق ومزاجه؛ إذْ لا يلبث المرء أن يثور ويمتعض فور سماعه إياها ، وتكون النتيجة أنه لا يكاد يتأمل فيها بذهنٍ هاديءٍ معتدلٍ ، وبدل أن يختبرها من حيث الدليل والبرهان ، يلجأ إلى ترديد أقاويل غير ذات الصلة ضدها ، تحت دواعي العناد والكراهية، وإن اختبار أمرٍ ما والحكم عليه في ضوء الدليل هو لزوم الحد والوقوف عنده . وأما معارضته العمياء بدون دليلٍ ولا برهان فهو تعدٍ ومجاوزة لحدود العقل والشرع!

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يَسْعَى : يسرع في مشيه لنصح قومه .

جاء الرجل الثالث - مع ذلك - ووقف إلى جانب الرسولين ، إذْ لابد للمرء ، وهو يشهد معركة الحق والباطل ، من مناصرة الحق لأنه حق ، حتى ولو كان ذلك مرادفاً لمناصرة الضعيف في مواجهة القوي!! وقد قال الرجل الثالث - فيما قال - لقومه : إن هؤلاء المرسلين لا يسألونكم أجراً على دعوتهم ، وهم - إلى جانب هذا - مهتدون.

ونعلم من هذا أن النزاهة أو الإخلاص وحده ليس بدليلٍ كافٍ على كون المرء على الهدى ، بل يجب أن يُختبر كلامه ، بغض النظر عن كونه مخلصاً وحسن النية ، على محك الدليل ، ثم إنه لن يعدّ صواباً إلا إذا ثبت صوابه على محك الدليل !

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

فَطَرَنِي : خلقني وأبدعني .

لا تُغْنِ عَنِّي : لا تدفع عني .

كان رجل الحق قد أيد المرسلين معرضاً حياته للخطر . وقد كان عمله هذا قيماً لدرجة أنه أدخل بعده إلى الجنة ، وعلى إثر دخوله في الجنة لا يتناول الرجل قومه الظالمين بالذم أو التشنيع ، وإنما يود لو أنهم قد علموا مصيره ، لما تصدوا لمعارضته الحق !!

تلك هي صورة المؤمن الصادق ؛ إذْ لا يزال المؤمن ناصحاً للناس يتمنى لهم الخير على كل حالٍ ، حتى ولو عامله الناس معاملة الجور والعدوان !

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

صَيْحَةً وَاحِدَةً : صوتا مهلكاً من السماء .

خَامِدُونَ : ميتون كما يخمد النار .

يَا حَسْرَةً : يا ويلاً . أو يا تندماً .

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثيراً أهلكنا .

القُرُونِ : الأمم .

لَّمَّا جَمِيعٌ : إلا مجموعون .

مُحْضَرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء .

إن الله - عز وجل - حين يحكم على أمةٍ ما بالهلاك ، فيكفي لذلك أن يحرك الأسباب الأرضية ضدها ؛ ولا يستدعي الأمر أن يستعمل جميع القوى السماوية الجبارة .

لِمَ استهزئ بالرسل على مدار التاريخ ؟ إن جواب ذلك يكمن في لفظ "الاستهزاء" نفسه ؛ فالمستهزئون إنما يستهزئون دوماً بإنسان يبدو لهم حقيراً . وهذا ما حدث مع الأنبياء والمرسلين ، حيث أبى معاصروهم أن يؤمنوا بهم لكونهم اعتبروا شخصياتهم أهون شأناً من أن يتم إعلان الصدق الإلهي على ألسنتهم !!

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

وَفَجَّرْنَا فِيهَا : شققنا في الأرض .

خَلَقَ الأَزْوَاجَ : الأصناف والأنواع .

إن وجود التربة الخصبة على سطح الأرض ، وتوفير الماء والحرارة والهواء بمقادير مناسبة لها ، وكون البذور الملقاة فيها تتمتع بصلاحية النمو الازدهار. وما إلى ذلك مما لا يحصى من عوامل وأسبابٍ معلومةٍ وغير معلومةٍ كهذه؛ تتحول آخر الأمر إلى الحبوب وأنواع الثمار والخضراوات لتكون غذاء الإنسان ، وإن هذا النظام قد وُجد بأكمله من غير أن يوجده الإنسان ، وإنما يتم إيجاده وتصريفه بفضلٍ من الله ورحمته ليس غير ، ولو فكر الإنسان في ذلك ، لامتلأ كيانه كله شكراً وعرفاناً .

ثم إن هذا النظام يتضمن أيضاً آيةً على حقيقةٍ عظمى، حيث تدلنا الدراسات على أن كل شيءٍ من أشياء هذا العالم يسري فيه مبدأ الزوجية، فإذا كان نظام الكون قائماً على هذا المبدأ الذي يفرض على جميع الموجودات أن تكمل نفسها عبر الانضمام إلى أزواجها، فلابد أن يكون لعالمنا الراهن هو الآخر "زوج" يكمّله، وهكذا يثبت نظام الزوجية السائد في العالم الحالي إمكان وقوع الآخرة !

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ : ننزع من مكانه الضوء .

قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ : قدرنا سيره في منازل ومسافات .

كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ : كعود عذق النخلة العتيق .

وَلاَ اللَّيْلُ :ولا آية الليل (القمر) .

سَابِقُ النَّهَارِ : سابق آية النهار (الشمس) .

يَسْبَحُونَ : يسيرون بانبساط .

لكلٍ من الأرض والقمر والشمس مدار معين لا يتخطاه، والكل يتحرك في مداره بدقةٍ فائقةٍ ، ويترتب على هذا الدوران ظواهر شتى ، كتعاقب الليل والنهار على وجه الأرض بانتظامٍ ، وأداء القمر دور "تقويمٍ فلكيٍ" بما يعتريه من زيادةٍ ونقصانٍ .. إلخ . ومع أن هذا النظام لا زال قائماً منذ آلاف القرون ، إلا أنه لم يحدث في سيره أي خللٍ أو اضطرابٍ ولو للحظةٍ واحدةٍ !.

وهذه المشاهدة تعرفنا بقدرة الله اللانهائية ، ولو أن المرء نظر فيها بعين الاعتبار لغمره شعور بعظمة الله الواحد القهار بحيث تنعدم بعدها كل آثار العظمة غير الإلهية من ذهنه تلقائياً !

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

ذُرِّيَّتَهُمْ : أولادهم وضعفائهم

الْمَشْحُونِ :المملوء .

فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ : فلا مغيث لهم من الغرق .

إن أرضنا هذه يوجد بها مناطق البر جنباً إلى جنبٍ مع البحار المترامية الأطراف، كما يحيط بنا من فوقنا فضاء رحيب هائل . ولقد أودع الله في هذا الكون إمكاناتٍ لا يعجز

معها المرء عن السفر في أي جزءٍ شاء من هذه الأجزاء الثلاثة ، فهو يستطيع أن يسافر براً وبحراً وجواً على حدٍ سواء.

وإنما يمكن القيام بكل هذه الأسفار تحت التدبير الإلهي، وهي رحمة للإنسان عظيمة لدرجة أنه لو تأمل فيها لطرح نفسه خاشعاً متضرعاً ذليلاً بين يدي الله ، ولما سلك في طريق المعصية والطغيان أبداً !

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

إن المرء تتبعه من ورائه أعماله ، وبين يديه يوم الحساب العسير، وكأنما الحياة رحلة من دنيا العمل إلى دنيا الجزاء ، وهذا وضع خطير للغاية ، ولو شعر المرء بخطورته حق الشعور ، لارتعدت فرائصه وجلاً وإشفاقاً، ولكن ما بال الإنسان ، فلا هو يأخذ نفسه بالتأمل والتفكير الجاد ، ولا تكاد آية ما تجعله يفتح عيونه! وإنما هو يظل مشغولاً بتبرير أعماله وتصرفاته عن طريق التأويلات الكاذبة حتى يموت !

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة الموت .

وَهُمْ يَخِصِّمُونَ : يختصمون في أمورهم غافلين .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ : نفخة البعث .

الأَجْدَاثِ : القبور .

يَنسِلُونَ : يسرعون في الخروج .

صَيْحَةً وَاحِدَةً : نفخة البعث .

مُحْضَرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء .

إن الذين لا يوقنون بالآخرة يقفون منها موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث ، كما لو أنها شيء مستبعد جداً. أما الذين هم أشد افتقاراً إلى الجدية نسبياً بين هؤلاء ، قد تبلغ بهم الجراءة أحياناً إلى حد اتخاذ الآخرة موضوع السخرية والاستهزاء، وسيبقى أمثال هؤلاء الناس غارقين في غفلتهم هذه ، إلى أن تقوم القيامة . وإن القيامة ستأخذهم بغتةً لن يتمكنوا معها من اتخاذ أية إجراءات أو تدابير ضدها .. وقد جاء في الحديث ما معناه: أن إسرافيل مازال ينظر نحو العرش ، واضعاً الصور في فمه ، يرتقب متى يصدر إليه الأمر الإلهي حتى ينفخ فيه! وإن النفخ في الصور شأنه شأن الجرس يدق إيذاناً بانتهاء مهلة الامتحان ، وبعدئذٍ سيعتري نظام هذا العالم تغير مفاجئ شامل ، حيث ستبدأ بعد ذلك مرحلة الجزاء ، بينما نحن الآن نمر بمرحلة العمل !

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

شُغُلٍ : نعيم عظيم يلهيهم عما سواه .

فَاكِهُونَ : متلذذون . أو فرحون .

الأَرَائِكِ : السرر في الحجال .

وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ : ما يتمنونه أو ما يطلبونه .

إن المرء لا تواجهه في العالم الراهن النتائج المعنوية لعمله . أما الآخرة فهي المكان الذي يلقى فيه كل أحدٍ من الناس نتائج عمله المعنوية، فالشخص الذي كان قد اقتصر سعيه ونشاطه في الأرض على إحراز المنافع الوقتية وحدها ، سيُبعث في عالم الآخرة الأبدي صفر اليدين تماماً . وعلى نقيضٍ من ذلك فإن الذين كرسوا حياتهم الدنيوية في سبيل الهدف الأسمى، سيفرحون هناك بما ينتظرهم من راحةٍ ونعيمٍ لا يفني . ذلك إلى جانب تكريم الله إياهم بعناياته الخاصة!!

﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وَامْتَازُوا : تميزوا وانفردوا عن المؤمنين .

أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ : أوصكم . أو أكلفكم .

جِبِلاً : خلقا . أو جماعة عظيمة .

اصْلَوْهَا : ادخلوها . أو قاسوا حرها.

الناس في الحياة الراهنة ، يتعايشون - بّرُهم مع فاجرهم - في دنيا واحدةٍ، أما في الحياة القادمة فسوف تفُصل دنيا كلا الفريقين عن دنيا الآخر، فصلاً تاماً ، بحيث يكون عُبّاد الشيطان مع الشيطان ، وعُبّاد الرحمن مع الرحمن. وإنه ليس ثمة أحد يعبد الشيطان باسم الشيطان. ولكن كل عابدٍ لغير الله هو في الحقيقة عابد للشيطان بصورةٍ غير مباشرةٍ ، لأنه إنما يفعل ذلك تحت تزيين الشيطان نفسه .

أثبتت الأبحاث والتجارب العلمية الجديدة أن جلد الإنسان شأنه كشأن إسطوانة تسجيل حساسة ، ترتسم عليه كل الأصوات الصادرة عن المرء ، وأنه يمكن إعادة هذه الأصوات كما هي في أي وقتٍ لاحقٍ . إنها آية تقرب إلى أفهامنا كيف أن جوارح الإنسان (يديه ورجليه) ستأخذ تحكي عليه في الآخرة أخباره وفصول حياته أولاً بأول؟!!

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

لَطَمَسْنَا :لصيرناها ممسوحة لا يرى لها شق .

فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ: ابتدروا الطريق لتجتازوه .

فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ؟: فكيف يبصرون الطريق؟

عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ : في مكان معاصيهم .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ : نطل عمره .

نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ :نرده إلى أرذل العمر .

طالما يغترّ الإنسان بما يتمتع به من نعمة العين واليدين والرجلين وغيرها من المواهب والقدرات الأخرى ، فيعدو طورَه ويتمرد على الله فيتجاوز حدوده ، وينتهك محارمه، على حين لو أنه فكرّ ملياً لكفاه هذا الواقع عظةً واعتباراً بأن مواهبه وقدراته تلك ليست من صنعه هو ، بل هي مما أعطاه الخالق إياه ، وإذا كان المعطي إلهاً آخر ، فبإمكانه أن يسترد عطاءه تماماً كما أعطاه .

وبالإضافة إلى ذلك فإن لمحةً سريعةً لهذا الإمكان لا تزال تعرض على الناس بالفعل في صورة الشيخوخة ؛ فالمرء حين يهرم ويبلغ نهاية الشيخوخة ، تنزع منه كل قدراته تلقائياً، حتى إنه ليعود ثانياً من شدة الضعف والاحتياج كما كان أيام طفولته الأولى، غير أن الإنسان غبي بليد الحس، لدرجة أنه رغم مشاهدته كل هذه الأحوال صباح مساء لا يستخلص منها درساً ولا عبرةً !

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لقد كان أسلوب القرآن المعجز يجذب إليه السامعين جذباً ، ومن ثم أخذ معارضوه يحاولون التقليل من تأثيره على الناس قائلين بأنه شعر وليس بكلامٍ إلهي.

غير أن هذه دعوى لا تستند على أساسٍ ، فما يسود القرآن من جوٍ مفعمٍ بالجدية اللامحدودة ، وما يحمل بين طياته من أسمى التعاليم عن معرفة الحق ، ومن كشفٍ لا مثيل له عن حقائق الغيب وأسرار الكون ، وما يوجد بين مضامينه - على اختلاف موضوعاتها - من نظم بديعٍ ووحدةٍ فكريةٍ فذةٍ ، وما يتخلل صحائفه من الإشراقات الربانية وانعكاساتٍ لألوهية الله وجلاله لا توصف ، كل ذلك يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك على أن القرآن كلام أعلى وأرفع من أن يصح وصفه بالشعر الإنساني .

بيد أن الحقيقة إنما يؤمن بها دوماً الأحياء وحدهم .. وهكذا فإن صدق القرآن هو الآخر لن يراه إلا من كان حياً ، وأما الإنسان الميت فلن يوفق لرؤيته أبداً !

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ : صيرناها لهم مسخرة منقادة لهم .

وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ: والأصنام جند معدون للكفار نحضرهم معهم في النار لعذابهم .

إن الحيوانات الداجنة بمثابة علامات حية تدلنا على أن صانع العالم المادي قد صنعه بحيث يستطيع الإنسان أن يقوم بتسخير موجوداته واستغلالها بشتى الوجوه ، وعلى أساسٍ من صلاحية العالم المادي هذه يقوم بناء الحضارة الإنسانية بأكمله ، ولو كان الحصان والثور هما الآخران من وحشية الطبع والغريزة حيث تكون الدببة والذئاب ، أو كان الحديد والبترول وراء مقدرة الإنسان تماماً ، كما هو شأن المواد البركانية الدفينة تحت الأرض ؛ إذن لاستحال رقي الحضارة الإنسانية وتطورها كل الاستحالة .

وإن الخالق الذي أسدى هذه النعم الجليلة ، كان ينبغي على الإنسان أن يشكر له وحده ، ويفرده بالعبادة من غير شريكٍ ، ولكنه يتخذ من الآخرين دونه آلهةً ، وإذا ذُكر فلا يتذكر ، بل لا يكاد يلقى إلى التذكير والنصيحة بالاً ، وهذا بدون شكٍ هو الطغيان الأكبر ، وليس بإمكان أحدٍ يرتكبه أن ينقذ نفسه من مصيره المحتوم على أية حالٍ !

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

هُوَ خَصِيمٌ : مبالغ في الخصومة بالباطل .

وَهِيَ رَمِيمٌ : بالية أشد البلى .

بَلَى : هو قادر على خلق مثلهم .

مَلَكُوتُ : هو الملك التام .

ليس الإنسان خالق نفسه ، وإنما هو مخلوق الخالق المبدع بلا جدالٍ ، وهذا الواقع كان يقتضي أن يتصف الإنسان بصفة التواضع والخضوع، ولكنه طالما ينحرف عن منهج الواقعية ، ويثير مناقشات تتنافى مع حيثيته المتواضعة العاجزة ..

إن خلق الإنسان والكون للمرة الأولى يكفي في حد ذاته للبرهنة على أن عملية الخلق هذه يمكن إعادتها مرة أخرى ، ولكن الإنسان يتعامى عن هذا البرهان الجلي الصارخ ويتساءل جدلاً كيف سيعود الميت حياً من جديد؟! ومع أن حادث تحول الإنسان الميت ثانيةً إلى إنسانٍ حي يقع - ولا ريب - يوم القيامة ، غير أن هذا الإمكان يبدو لنا اليوم جلياً في الأشياء الأخرى ، فلننظر إلى الشجر مثلاً : إن الشجر يكون في ظاهر الأمر أخضر ، ولكنه حين يقطع ويحرق أخشاباً ، فيتخذ شكلاً مختلفاً عن حالته

الأولى كل الاختلاف : يُسمى النار!

إن تحول شيءٍ إلى شيءٍ آخر واقعة ثابتة لا تحتاج إلى مزيد برهانٍ ، وقد جعلها الله بالنسبة إلى بقية الأشياء ممكنة الحدوث والتكرار في عالمنا الراهن. وأما بالنسبة إلى الكائن البشري ، فإنه تعالى سيجعل ذلك ممكناً في يوم القيامة، إلا أنه لن يكون لأجل الإرغام على الإيمان ، بل لمجازاة الإنسان على عناده وطغيانه !!

obeikandl.com